

غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء (432-440هـ/1041-1048م)

الدكتورة: رجاء علي انجم قسم التاريخ (تاريخ عرب واسلام)
كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة اللاذقية

المخلص:

يتناول هذا البحث سياسة السلطان مودود بن مسعود الغزنوي في سنوات حكمه السبع بين 432 و 440 للهجرة، وهي الفترة التي أعقبت مصرع والده مسعود على يد ثائري جيشه، ويسعى البحث إلى تفكيك طبيعة تلك السياسة التي اضطر فيها مودود إلى الموازنة بين إرث آبائه القائم على التوسع والفتوح، وبين واقع الدولة المتصدع الذي فرض عليه الانكماش والمدافعة عن حوزته، وقد توزع البحث على ثلاثة مباحث رئيسية، تناول المبحث الأول بنية الإرث الغزنوي بجوانبه العسكرية والاقتصادية والإدارية والجغرافية والمعنوية، وبيّن كيف تحول هذا الإرث من عنصر قوة إلى عبء ثقل في زمن الفتنة، فيما وقف المبحث الثاني عند التحديات الداخلية والخارجية التي واجهها مودود، وفي مقدمتها تمردات القادة الأتراك، والنزاع الأسري مع عمه عبد الرشيد، والزحف السلجوقي الذي أضاع خراسان وغيرها من الأقاليم الغربية، وحل استراتيجيات مودود في مواجهة تلك التحديات، والتي تنوعت بين القمع والترهيب تارة، والانسحاب المدرّوس والتركيز على المركز تارة أخرى، أما المبحث الثالث فتوقف عند وسائل التثبيت الشرعي وتدبير الملك التي اعتمدها مودود، من استناد إلى نسب محمود، واستمالة للعلماء والفقهاء، واستخدامه للألقاب والخطب والمظاهر السلطانية، وسياسة إدارية تعتمد على الموازنة بين الفرس والأتراك، مع استعمال العقوبات القاسية أحياناً والعفو أحياناً أخرى، وخلص البحث إلى أن مودوداً كان سياسياً محنكاً أدرك أن البقاء أولى من المغامرة، فحول الدولة من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى مملكة إقليمية مركزها غزنة وبخارى، مؤقتاً بذلك السقوط الكامل للدولة، ورغم قصر حكمه إلا أنه يمثل نموذجاً فريداً لحاكم واجه أزمة بنيوية متكاملة، وحاول بإمكاناته المحدودة أن يمسك بزمام الملك في زمن كثرت فيه الفتن واضطربت فيه الولاءات.

الكلمات المفتاحية: غزنة، مودود بن مسعود، السلاجقة، الإرث الغزنوي، عصر الفتنة.

Ghazna in the Age of Sedition: The Policy of Sultan Mawdud ibn Mas'ud between the Legacy of the Father and the Challenges of Survival (432–440 AH / 1041–1048 CE)

Abstract:

This research examines the policy of Sultan Mawdud ibn Mas'ud al-Ghaznawi during his seven-year reign between 432 and 440 AH, a period that followed the murder of his father Mas'ud at the hands of army mutineers. The research seeks to deconstruct the nature of that policy, in which Mawdud was compelled to balance between the legacy of his forefathers, built upon expansion and conquests, and the fractured reality of the state, which imposed upon him retrenchment and the defense of his domain. The research is divided into three main sections: the first section addresses the structure of the Ghaznavid legacy in its military, economic, administrative, geographical, and moral dimensions, and demonstrates how this legacy transformed from an element of strength into a heavy burden in times of civil strife. The second section examines the internal and external challenges that Mawdud faced, foremost among them the revolts of the Turkish commanders, the familial conflict with his uncle 'Abd al-Rashid, and the Seljuk advance that cost him Khurasan and other western provinces, while analyzing Mawdud's strategies in confronting these challenges, which alternated between suppression and intimidation on one hand, and calculated withdrawal and concentration on the center on the other. The third section addresses the means of legitimization and royal administration that Mawdud employed, including his reliance upon his lineage to Mahmud, his cultivation of scholars and jurists, his use of titles, sermons, and regal displays, and an administrative policy based on balancing the Persians and Turks, while sometimes applying harsh punishments and other times granting pardons. The research concludes that Mawdud was a shrewd statesman who realized that survival was preferable to adventurism, thus transforming the state from a sprawling empire into a regional kingdom centered on Ghazna and Bukhara, thereby delaying the complete collapse of the state. Despite the brevity of his reign, he represents a unique model of a ruler who faced a comprehensive structural crisis and attempted, with his limited means, to hold the reins of power in an age rife with seditions and unsettled loyalties.

Keywords: Ghazna, Mawdud ibn Mas'ud, Seljuks, Ghaznavid Legacy, Age of Sedition.

المقدمة:

إن دراسة تاريخ الدول الإسلامية في مراحل الانهيار الداخلي تتطلب مقارنة موضوعية تبتعد عن الأحكام المعاصرة، وتنتظر إلى السياسة القديمة بمنطقها الخاص. ويتناول هذا البحث الموسوم بـ "غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء (432-440هـ/1041-1048م)" أزمة الإمبراطورية الغزنوية بعد مقتل السلطان مسعود بن محمود سنة 432هـ على يد ثوار جيشه، وهي الحادثة التي كشفت هشاشة الدولة التي قامت على هيبة محمود وسيادة الجند الأتراك. وقد خلف مسعود ابنه مودود في ظروف بالغة الصعوبة، إذ واجه ثلاث مشكلات مترابطة: أولها ثقل الإرث الجغرافي الواسع الممتد من الهند إلى بحر قزوين (بحر الخزر وهو بحر داخلي) وثانيها تمرد القادة الأتراك الذين صاروا يتحكمون بالجيش ويتجرون على الملوك، وثالثها انقسام البيت الغزنوي بسبب نزاع مودود مع عمه عبد الرشيد، بالإضافة إلى الضغط السلجوقي المتزايد في الشرق الذي أدى إلى فقدان مدن كبرى مثل مرو وبلخ، تاركاً خراسان مكشوفة للعدو. ولحل تلك المعضلات، اتبع مودود سياسة عملية مزدوجة فعلى المستوى الداخلي، قمع الثوار بقسوة وكبح نفوذ القادة الذين طمعوا بالمشاركة في الحكم، وخارجياً، لجأ إلى غارات محدودة في الهند ليس بهدف التوسع بل لتوفير الغنائم التي يحتاجها الجند، وتقرب إلى العلماء لإضفاء الشرعية الدينية على حكمه، لكن العقبة الجوهرية كانت في نظام الأقطاع العسكري الذي ورثه عن جده، فقد تحول ذلك النظام إلى أداة قوة بيد الأمراء الذين أصبح ولاؤهم مرتبطاً بمصالحهم لا بالسلطان، مما أجبر مودود على التخلي عن سياسة التوسع التي اشتهر بها الغزنويون، واتجه إلى الانكماش والتركيز على حماية قلب المملكة في غزنة وبخارى، وهي الخطوة التي أغضبت بعض قادته لكنه اعتبر البقاء أهم من المغامرة بفقدان الملك كله. وعلى امتداد سبع سنوات، جسد مودود نموذج الحاكم الذي أدرك تحولات عصره، فانتقل بالدولة من مرحلة المد العسكري إلى مرحلة الدفاع عن البقاء، مستفيداً من هيبة اسم أسلافه ومن ذكائه السياسي في التعامل مع الأطراف المتصارعة، ورغم تناقض الروايات حول شخصيته بين الشجاعة والقسوة، وهو الاختلاف الذي يعكس تعقيد الظرف الذي عاشه، فلم تكن سنوات حكمه مجرد مرحلة عابرة، وإنما أصبحت مختبراً لفهم كيفية إدارة الدول الكبرى لأزماتها الوجودية، حين يصبح الانسحاب من بعض الجبهات ضرورة حتمية للحفاظ على الكيان، وهذا هو المحور الأساسي الذي سيعمل البحث على تحليله من خلال النصوص التاريخية المتاحة.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في كونه يتناول حقبة دقيقة من تاريخ الدولة الغزنوية، وهي سنوات الفتنة التي أعقبت مصرع السلطان مسعود، حيث تسلط الضوء على شخصية السلطان مودود الذي لم يحظَ بما يستحقه من عناية الباحثين رغم ما حملته سيرته من دروس في سياسة الأزمات، إذ يعدّ حكمه مختبراً تاريخياً نادراً لدراسة كيفية تعامل الحكام مع إرث الآباء في لحظات الانهيار، كما أن التركيز على سنوات سبع فقط يتيح رصد التفاصيل الدقيقة للقرارات السياسية والإدارية والعسكرية في زمن متسارع الأحداث، مما يكشف عن سنان التحول من حال التوسع والهيمنة إلى حال الانكماش والمدافعة.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن ملامح السياسة التي انتهجها السلطان مودود بن مسعود في مواجهة التحديات المتعددة التي عصفت بدولته، وذلك من خلال تحليل قراراته وتصرفاته إزاء القادة الأتراك والصراعات الأسرية والزحف السلجوقي والنزاعات الإقليمية، وصولاً إلى رسم صورة متكاملة لطبيعة حكمه وكيفية موازنته بين متطلبات الإرث الغزنوي وضرورات البقاء، كما يهدف إلى تبين أثر تلك السياسة على استقرار الدولة ونفوذها الجغرافي خلال سنوات حكمه القليلة، وما إذا كانت قد مهدت لانهيار لاحق أو أنها مثلت محاولة إصلاحية حقيقية حالت دون اندحار كامل، بالإضافة إلى السعي لفهم العوامل الذاتية والموضوعية التي صنعت شخصيته السياسية من خلال علاقته بوالده وجده.

مشكلة البحث:

تتطلب إشكالية البحث من سؤال محوري: كيف دبّر السلطان مودود بن مسعود أمر الملك بين عامي 432 و440هـ، وهو يواجه إرث آبائه وتحديات البقاء؟ ويتفرع عن هذا السؤال الرئيسي أسئلة فرعية محددة: ما طبيعة اضطراب الجند الذين قتلوا والده، وكيف استمال مودود قاداتهم وأخمد فتنتهم؟ وكيف تعامل مع زحف السلاجقة على خراسان، وما الذي حمله على الانسحاب من الأقاليم الغربية؟ وكيف استعان بالعلماء والفقهاء لتثبيت سلطانه؟ وكيف أثّرت سياسته في الخراج والإقطاع وأموال الدولة؟ وتكمن الإضافة العلمية في تقديم قراءة نقدية جديدة لسياسة مودود بوصفها تدبيراً للملك في زمن الفتنة، وليس انهياراً، معتمدة على المصادر الأولية لإعادة تقييم شخصيته بوصفه سلطاناً واجه تفكك البيت الغزنوي ودبره بحكمة.

السؤال الرئيسي:

كيف صاغ السلطان مودود بن مسعود سياسته الداخلية والخارجية في الفترة بين (432 - 440هـ) لمواجهة إرث أبيه وتحديات البقاء، وما مدى نجاح تلك السياسة في الحفاظ على كيان الدولة الغزنوية واستقرارها؟

الأسئلة الفرعية:

1. ما طبيعة التحديات الداخلية التي واجهها مودود عند توليه الحكم وكيف تعامل مع تمرد القادة الأتراك الذين تسببوا في مقتل أبيه؟
2. كيف أثر الزحف السلجوقي على الحدود الغربية وهل كانت سياسته دفاعية بحتة أم حملت بعض ملامح الهجوم المحدود؟
3. ما هو موقفه من النزاعات الأسرية التي أثارها عمه عبد الرشيد وأبناء عمومته وكيف حسمها؟
4. كيف وظف العلماء والفقهاء لتثبيت شرعيته وإلى أي حد كان الخطاب الديني حاضراً في تبرير قراراته؟
5. كيف أثرت سياسته على الأوضاع الاقتصادية كالغنائم والإقطاعات والخراج؟
6. ما هي الصورة التي خرج بها حكمه في مرآة المؤرخين وهل كانت سياسته امتداداً لإرث الغزنويين أم انقطاعاً عنه؟

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي بوصفه الإطار الأوسع، مع استثمار أدوات النقد لمرويات المصادر التي تناولت أخبار السلطان مودود، كتاريخ البيهقي وابن الأثير وابن الجوزي وابن مسكويه، كما يعتمد البحث على تتبع الأخبار المتناثرة وجمعها في سياق زمني متسلسل، ثم تحليلها تحليلاً سياسياً يراعي العلاقات السببية بين الأحداث، ويُستعان بالمقارنة بين الروايات المتضاربة للوصول إلى الترجيح بناءً على قرائن السياق، ويُولى البحث اهتماماً بالمنهج الوصفي عند عرض تفاصيل الوقائع الرئيسية تمهيداً لتحليلها على ألا يطغى الوصف، مع مراعاة الدقة وفهم المصطلحات السياسية كما كانت مستعملة في القرن الخامس الهجري.

المبحث الأول: بنية الإرث الغزنوي وأثره في رسم سياسة مودود

إن دراسة سياسة السلطان مودود⁽¹⁾ تستدعي بالضرورة تحليل الإرث المركب الذي تسلمه، إذ قامت الدولة على نظام الأقطاع وهيمنة الجند الأتراك، مما جعل ولاء القادة متذبذباً بين السلطان ومصالحهم، مع اتساع الرقعة وصعود الخطر السلجوقي وانقسام البيت الحاكم، مما أجبر مودود على التحول من التوسع إلى الانكماش والتركيز على حماية غزنة⁽²⁾، مكتفياً بغارات محدودة لتأمين موارد الجيش، لكنه ظل أسير نظام الأقطاع الذي حوّل القادة إلى أطراف متعددة الولاء. لعلّ أبرز ما ورثه مودود عن جده محمود بن سبكتكين (361-421هـ/971-1030م)⁽³⁾ هو ذلك النموذج الخاص في الحكم الذي جمع بين السطوة العسكرية والغطاء الديني، فقد أقام محمود دولته على ثلاث ركائز متشابكة: الجيش التركي، والغزوات الموسمية على بلاد الهند لجلب الأموال والعبيد والأحجار الكريمة، وإظهار نفسه كحامٍ للخلافة العباسية وهذا التالوث هو الذي منحه مكانة فريدة في التاريخ الإسلامي⁽⁴⁾، فكان أول من تلقب بالسلطان، سمّاه الخليفة القادر بالله بـيمين الدولة وأمين الملة، وخطب له على

(1) مودود الغزنوي (412-441هـ/1021-1049م): مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، تولى سلطنة غزنة سنة 432هـ/1040م بعد مقتل أبيه على يد ثوار الجيش، فعاد من حرب السلاجقة بخراسان، وقبض على عمه محمد وأبنائه وأعدمهم لاشتراكهم في قتل أبيه، ثم استقر في الحكم وافتتح حصوناً في الهند؛ ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت: 749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996م، (ج1)، ص337.

(2) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة تقع في أقصى خراسان، وتشكّل الحد الفاصل بينها وبين الهند، وهي ذات خيرات وفيرة لكنّ بردها قارس جداً. وقد كانت طوال تاريخها معمورة بأهل العلم والدين، ونُسب إليها عدد لا يُحصى من العلماء، كما كانت موطناً لملوك بني محمود بن سبكتكين إلى أن انقرضوا؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ط2، 1995م، ج4، ص201.

(3) محمود بن سبكتكين: أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين، مؤسس السلطنة الغزنوية الفعلية وأشهر سلاطينها، تولى الحكم بعد وفاة والده سنة 387هـ بعد صراع مع أخيه إسماعيل، وتمكن من توحيد الدولة وفتح خراسان وسجستان، وامتدت فتوحاته إلى الهند حيث افتتح العديد من الحصون والقلاع، وكسر صنم سومنات الشهير سنة 416هـ، كما عرف بحسن سيرته وإحسانه إلى العلماء وتشييده للمدارس والمساجد، واستمر في الملك حتى وفاته بغزنة سنة 421هـ؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت: 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ط1، 1900م، ج5، ص175-180.

(4) خليفة، حسن، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، المطبعة الحديثة، القاهرة، ط1، 1931م، ص187-188.

المنابر⁽¹⁾، وذكرت المصادر أن محموداً حين غزا سومنات⁽²⁾ الشهيرة في الهند، لم يكن همه الغنيمة وحدها، بل كان يحرص على كسر الأصنام وإظهار شعار الجهاد، وأمر بإنشاء المساجد في المواقع التي افتتحها، وأرسل إلى الخليفة يخبره بالنصر⁽³⁾، وكتب الشعراء في مدحه أبياتاً تخلد تلك الغزوات، فمن ذلك قول بعضهم فيه:

أَظَلَّتْ شَمْسُ مَحْمُودٍ عَلَى أَنْجُمِ سَامَانَ
وَأَضْحَى آلُ بَهْرَامٍ عَبِيداً لِابْنِ خَاقَانَ⁽⁴⁾

وكان لهذا البعد الديني أثر كبير في تضخيم هيئته، حتى صار اسمه يذكر مع الفاتحين العظام، غير أن هذا الإرث المجيدي حمل خلفاءه توقعات لا تطاق، إذ صار الناس ينظرون إلى السلطان الغزنوي على أنه لا بد أن يكون غازياً منصوراً، فاتحاً مبيناً، وهذا ما واجه مودود بصعوبة بالغة، لأنه لم يعد بإمكانه أن يغزو الهند في كل عام كما كان جده يفعل⁽⁵⁾، فقد انشغل بالثورات الداخلية والزحف السلجوقي، كما أن خزانته لم تكن تسمح بتجهيز حملات كبيرة، فضلاً عن أن الجيش الذي كان يرافقه في تلك الحملات قد تغير ولاؤه.

ومن هنا يمكن إدراك أن إرث الجهاد المحمودي لم يكن نعمة لمودود بقدر ما كان نقمة، لأنه قيده بصورة مثالية للسلطان لا تتناسب مع واقع الدولة المتهاوي، فقد حاول مودود أن يحاكي جده

(1) ابن العمراني، محمد بن علي (ت: 580هـ/1184م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تح: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1 2001م، ص184.

(2) سومنات: موضع على المحيط الهندي في شبه جزيرة كاثياوار بالكجرات، وصل إليها السلطان محمود الغزنوي وفتحها أوائل القرن الخامس الهجري، كان بها صنم كبير يتوجه إليه الهندوس؛ العمري، أحمد بن يحيى (ت: 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج3، ص42.

(3) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985م، ج17، ص485-488.

(4) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت: 1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م، ج4، ص470.

(5) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009م، ج2، ص245.

في غزواته الهندية، فشن حملة على بعض مناطق ملتان⁽¹⁾ وسيستان⁽²⁾، غير أن تلك الحملات كانت محدودة الأثر، ولم تحقق فتوحات كبيرة، ومن ثم فإن إرث محمود من حيث البعد الديني والجهادي شكل عبئاً ثقيلاً على مودود، لأنه اضطر إلى التظاهر بمواصلة النهج مع عجزه عن بلوغ مداه، وقد تجلى ذلك العجز في محاولته الثانية حين وجه جيشاً إلى تخوم الهند، فعاد الجيش ولم يُحقق النصر المرجو، مما أثار حفيظة القادة الذين كانوا ينتظرون الغنائم، فكانت تلك الحملات سبباً في زيادة التوتر بينه وبين جنده، لا في تهدئته⁽³⁾.

أما الإرث الثاني الذي ورثه مودود عن أبيه مسعود⁽⁴⁾، فهو نظام الحكم فقد تولى الحكم بعد مقتل أبيه على يد ثوار الجيش، ولم يرث نظاماً سياسياً مستقراً بل ورث أزمة نظام، إذ كان مسعود قد ابتعد عن سياسة جده محمود في التوازن بين القادة، وأغرق الدولة في حروب أهلية مع السلاجقة حتى أصبح الجيش التركي عمود الملك⁽⁵⁾. كما أن مودود كان صغيراً حين تولى الحكم، مما جعله يفتقر إلى الخبرة الكافية في التعامل مع القادة الأتراك الذين توج تمردهم بمقتل أبيه، فأدرك أن الجيش لم يعد أداة مطيعة بل لاعباً مستقلاً في المعادلة السياسية، لذلك كانت أولى خطواته استرضاء الجيش وتقريب كلمته، عبر تولية بعض القادة على نواح مهمة ومنحهم الإقطاعات، وإثارة الخلافات بين كبارهم لإضعاف نفوذهم، ونجح في كسب بعضهم لكنه لم يستطع السيطرة الكاملة على الأمور، ويؤكد ابن

(1) ملتان: مدينة عظيمة منيعة في أقصى بلاد الهند، كانت دار حج الهنود وعبادتهم، وفيها قبة الصنم الكبير الذي يحجون إليه ويتقربون إليه بأموال طائلة، وصفت بأنها دار الملك ومجمع العسكر؛ القزويني، زكريا بن محمد (ت: 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ط1، 1960م، ص121-123.

(2) سيستان: بلد جليل، له أكوار كثيرة، تضاهي مدينة خراسان، وهي منقطعة متصلة ببلاد السند، والطريق إليها في صحارى وقفار، وأول من نزلها من الولاة معن بن زائدة الشيباني؛ المنجم، إسحاق بن الحسين (ت: 625هـ/1228م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ، ص80.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م، ج4، ص506.

(4) مسعود الغزنوي (ت: 432هـ/1040م): مسعود بن محمود بن سبكتكين، تولى السلطنة سنة 422هـ/1030م بعد خلع الجند لأخيه محمد، وامتد ملكه إلى خراسان وغزنة والهند والسند والري وأصبهان، وافتتح قلاعاً في الهند، وقاثل السلاجقة وأجلاهم عن خراسان، وعرف بالشجاعة والكرم وحب العلماء وله آثار عمرانية؛ البيهقي، ظهير الدين علي بن زيد (ت: 565هـ/1169م)، تاريخ بيهق، دار إقرأ، دمشق، ط1، 1425هـ، ص180.

(5) جوده، محمد صلاح، الدولة الغزنوية في المشرق الإسلامي، دار اسكرايب للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2025م، ص37.

الأثير أن مودوداً لم يستقر له ملك إلا بعد أن فرّق كلمة القادة بالاستمالة تارة وبالقمع تارة أخرى⁽¹⁾، وهو ما يدل على أن الجيش كان فاعلاً مستقلاً لا أداة طيعة، وأن ولاءه كان مرتبطاً بالمصلحة لا بالبيعة، كما ورث نزاعات أسرية، إذ كان مسعود قد صادر أملاك بعض إخوته وأبناء عمومته، مما خلق عداوات ظهرت بعد مصرعه، فتقدم عمه عبد الرشيد بن محمود (ت: 444هـ/1052م)⁽²⁾ مطالباً بالحكم مدعياً أحقيته على ابن أخيه الشاب، واستطاع الاستيلاء على بعض المدن وجمع جيش من الموالين، مما اضطر مودود لتوجيه حملة عسكرية ضده كلفته وقتاً وجهداً ومالاً، وألتهته عن مواجهة السلاجقة.

وهكذا كان الإرث الذي خلفه مسعود أشبه بميراث من الخصومات، إذ تحولت ولاية العهد والوزارة والأمراء الكبار إلى بنية متصدعة، جعلت مودود يواجه في آن واحد تمرد الجند، ونزاع الأسرة، وضعف الخبرة الشخصية، وهو ما حدد ملامح سياسته في سنوات حكمه السبع المضطربة، والجانب الثالث من الإرث الغزنوي هو البنية الاقتصادية والإقطاعية، إذ كان الاقتصاد الغزنوي في عهد محمود يقوم على ركيزتين أساسيتين هما الغنائم⁽³⁾ الهندية والخراج⁽⁴⁾ الوارد من الأقاليم الزراعية كخراسان

(1) ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م، ج8، ص79.

(2) عبد الرشيد بن محمود بن سبكتين: من ملوك الدولة الغزنوية، حبسه ابن أخيه السلطان مودود في قلعة ميدين بطريق بسط، وبعد وفاة مودود ببيع بالخلافة ولقب بشمس الدين أو جمال الدولة، لكنه كان ضعيفاً قليل الحيلة فلم يطل عهده، إذ قتله رئيس حبابه؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص80.

(3) الغنائم: جمع غنيمة وهي مأخوذة من الغنم وتعني الفوز والظفر بالشيء، وهي ما أخذ من مال عند مقاتلة ومحاربة الأعداء على سبيل الانتصار والغلبة بقتال وركوب خيل ونحوها، وقد شرعها الله عز وجل وخص بها أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ١٤١٤هـ، ج12، ص446؛ التيناوي، مها محمد علي، ما ملكت أيماكم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م، ص148-149.

(4) الخراج: نوع من الضرائب السنوية التي تُفرض على الأراضي، خاصة الأراضي التي تم فتحها بالقوة، وتُجمع لصالح بيت مال المسلمين وتُصرف على مصالحهم العامة، ويختلف هذا النظام الضريبي عن الزكاة التي تُفرض على الأفراد والمال، إذ إن الخراج ضريبة مالية على الأرض نفسها، وقد أسس الخليفة عمر بن الخطاب نظام الخراج كاجتهاد إداري لتنظيم جباية الأموال من الأراضي التي لم تقسم بين الفاتحين، كأرض العراق والشام ومصر؛ الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت: ٨١٦هـ/1413م)، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ، ص98؛ النيجيري، عبدالله أبوبكر أحمد، مفهوم الخراج في الفقه الإسلامي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، العدد23، 2021م، ص842-845.

والري وأصبهان، وكان هذا النظام يتيح للسلطان توزيع الأموال على القادة والجند لضمان ولائهم⁽¹⁾، لكنه كان هشاً بطبيعته لاعتماده على التوسع المستمر، فإذا توقف الفتح أو تراجعت الغنائم واجهت الدولة أزمة مالية حادة، وهذا ما حدث في عهد مودود، إذ استولى السلاجقة على معظم الأقاليم الغربية المنتجة للخراج كخراسان وبلخ⁽²⁾ ومرو⁽³⁾، وتوقفت الغزوات الهندية الكبيرة لانشغال الجيش بالحروب الأهلية والدفاع عن الحدود، فأصبحت الخزائن شبه خاوية، ولجأ مودود إلى سياسة تقشفية لم تألفها الدولة، فأقل العطايا والهبات للقادة والعلماء، لسد نفقات الجيش، وهكذا تحول الإرث الاقتصادي القائم على الوفرة إلى عائق أمام سياساته التقشفية⁽⁴⁾، ويؤكد هذا ما أورده البيهقي من أن خراج خراسان كان يُدرّ على الدولة أموالاً طائلة قبل الزحف السلجوقي، وهذا يدل على أن الاقتصاد الغزنوي كان مرهوناً بالفتح والخراج، وأن أي انقطاع فيهما كان ينعكس مباشرة على استقرار الدولة⁽⁵⁾.

أما الإرث الإداري فكان على جانب كبير من الأهمية، إذ أن الدولة الغزنوية قد ورثت نظاماً ديوانياً متطوراً من السامانيين والبويهيين، يتضمن دواوين للجيش والخراج والإنشاء والرسائل، وكانت هذه الدواوين تدير شؤون الدولة بدقة، ولها سجلات ودفاتر تحفظ أسماء الجند ومقدار أعطياتهم، وتحصي الأموال الواردة والصادرة⁽⁶⁾، فبعد أن استقر مودود في غزنة قام بالإبقاء على كثير من

(1) درويش، عبد الستار مطلق، السلطان محمود الغزنوي سيرته ودوره السياسي والعسكري في خراسان وشبه القارة الهندية 361-421هـ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009م، ص146-147.

(2) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، من أجل المدن بها، وأكثرها غلة، وقد افتتحها الأحنف بن قيس في أيام عثمان بن عفان، وينسب إليها خلق كثير، منهم الحسن بن شجاع، المحدث المشهور؛ الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/894م)، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م، ص20.

(3) مرو: مدينة كبيرة بناها ذو القرنين، وفيها أبراج كثيرة وكانت مقر الأكاسرة، وليس في خراسان كلها مدينة لها حسن سوقها، وخارجها يؤخذ على المياه، يرتفع منها القطن الجيد، والثياب الحرير. ينظر: مجهول (ت: ٣٧٢هـ/983م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م، ص118.

(4) الأصفهاني، عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2022م، ص11؛ الشيلالي، أسامة سعد علي، الحياة الاقتصادية في الدولة الغزنوية (351هـ-582هـ/962م-1186م)، المجلة الليبية العالمية، العدد64، 2022م، ص1-19.

(5) البيهقي، محمد بن الحسين (ت: 470هـ/1077م)، تاريخ البيهقي، تر: يحيى الخشاب، صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1999م، ص491-495.

(6) الغويل، حنان العجيل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت، العدد15، العدد1، 2023م، ص71-86.

الوزراء والكتاب الذين كانوا يعملون في عهد أبيه، ومنهم بعض الذين شاركوا في دواوين محمود، فكانوا بمثابة الذاكرة الإدارية للدولة، وهذا يدل على أن مودود أدرك أهمية الاستمرارية الإدارية، فحاول استغلال تلك الخبرة في تدبير أموره، ومع ذلك فإن هذه الميزة الإدارية لم تكن كافية لإنقاذ الدولة من أزماتها، لأن الإدارة وحدها لا تستطيع تعويض غياب الجيوش أو نقص الأموال فالإرث الإداري من جهة يمنح الدولة الاستمرارية والضببط، ومن جهة أخرى يكشف عن حجم التراجع المالي بوضوح، ويضع السلطان أمام خيارات لا مفر منها.

كما لا بد من الإشارة إلى الإرث الجغرافي، وهو اتساع الرقعة التي كانت تحت سيطرة الغزنويين، والتي كانت تمتد من تخوم الهند شرقاً إلى أصفهان والري غرباً، ومن كاشغر شمالاً إلى بحر العرب جنوباً، وهذه المساحة الشاسعة كانت في وقت الازدهار مصدر قوة، لأنها كانت تؤمن الكثير من المدن الغنية والطرق التجارية⁽¹⁾، ولكنها في وقت الضعف تحولت إلى عبء ثقيل، إذ أصبح الدفاع عن كل تلك الأطراف مستحلباً، خاصة مع وجود العدو السلجوقي في الغرب، والثورات الداخلية في الوسط، ويمكن القول إن السلطان مودود أدرك استحالة الحفاظ على تلك الإمبراطورية بكاملها، فاتخذ قراراً استراتيجياً بالانسحاب من بعض الأقاليم والتركيز على قلب الدولة، وهو ما تجلى في تخليه عن الدفاع عن أصفهان والري أمام السلاجقة، وركز جهوده على غزنة وبخارى⁽²⁾، وهذا القرار كان خروجاً صريحاً عن إرث التوسع الذي أسسه محمود واستمر به مسعود، ولكنه كان قراراً عقلانياً في سياق المرحلة، لأن استمرار المحاولة للاحتفاظ بكل شبر كان سيؤدي إلى خسارة الجميع.

المبحث الثاني: التحديات الداخلية والخارجية في عصر الفتنة واستراتيجيات المواجهة

تولى مودود بن مسعود الحكم في ظرف صعب، إذ كانت الدولة الغزنوية تعاني من تصدع داخلي واضح، إذ واجه تحديات متعددة في وقت واحد تمثلت بتمرد القادة الأتراك، وزحف السلاجقة على الأقاليم الغربية، وخلافات أسرية داخل البيت الغزنوي، وفوادة والده كانت مفاجئة ولم يتمكن من الاستعداد لتلك الأزمات مسبقاً. لذلك كانت سياساته قائمة على ردود فعل سريعة أكثر منها خطأً مدروسة، لكنه أظهر بعض الوعي السياسي في اختياره لأقل الخيارات ضرراً، فقد واجه السلطان

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(2) محمد، نورا عنتر، سلطة الشوانكاريين السياسية نشأة الإمارة وتطورها وسقوطها، مجلة الدراسات العربية، المجلد 51، العدد 5، 2025م، ص 3085-3104.

مودود بن مسعود تحدياً داخلياً هائلاً تمثل في مقتل والده على يد عمه محمد وابن عمه أحمد، فذكرت المصادر أنه تم الاتفاق بينهم على قتل مسعود ليصفو لهم الملك فقتلوه⁽¹⁾، مما أوجد فراغاً في السلطة وهزّ أركان الدولة، وتضطرب الروايات في تحديد المسؤول عن مقتل مسعود؛ فبينما يُحمّل ابن الأثير عمّه محمداً وابن عمه أحمد تبعة التدبير، تُشير روايات أخرى إلى أن الجند أنفسهم كانوا المحرّضين حين امتنع مسعود عن عطاياهم، وهذا الاضطراب في الإسناد يكشف عن أزمة أعمق من مجرد جريمة قتل؛ فهو تصدّع في ولاء الجند الذي كان عمود الملك الغزنوي. وترجيح كون القتل نتيجة تمرد عسكري لا مؤامرة أسرية بحثة يجد سنداً في تتابع الأحداث، إذ لم يستقر لمودود ملك إلا بعد استمالة القادة وتقريب كلمتهم، مما يدل على أن الجند كانوا الفاعل الحقيقي في المعادلة السياسية، لا أداة طيعة بيد الأسرة الحاكمة يذكر ذلك ابن الأثير بالقول: "فلما قتل الملك مسعود وصل الخبر إلى ابنه مودود، وهو بخراسان، فعاد مجدداً في عساكره إلى غزنة ليسترد الملك ويؤدب المعتدين، وبعد معركة فاصلة تصاف هو وعمه محمد، ثم انهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد، وأنوشتكين الخصي البلخي، وابن علي خويشاوند، فقتلهم وقتل أولاد عمه جميعهم"⁽²⁾، مما مكّنه من إعادة الاستقرار إلى مملكته، ولكن التحديات لم تتوقف عند هذا الحد، بل واجه مودود تهديداً آخر من أخيه مجدود⁽³⁾، إذ أن أباه كان قد سيره إلى الهند سنة 426هـ/1034م، فأظهر مجدود الخلاف على أخيه بسيطرته على ملتان ولهور وجمع العساكر، فاضطر مودود إلى ندب جيش ليمنعوه ويقاقلوه⁽⁴⁾، غير أن القدر تدخل بحلّ تلك الأزمة، إذ توفي مجدود بلهاور⁽⁵⁾، مما أراح مودود من حرب أهلية وشيكة.

وهكذا، ورغم هذه التحديات الداخلية الموجهة التي بدأت بمقتل والده وانتهت بتمرد أخيه، وبرز تحدّي أسري أخطر، تمثل في مطالبة عمه عبد الرشيد بن محمود بالسلطة، وكان هذا الأخير قد

(1) الحسني، عبد الحي بن فخر الدين (ت: 1341هـ/1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج1، ص74.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص18.

(3) مجدود بن مسعود الغزنوي (ت: 435هـ/1043م): أمير من الأسرة الغزنوية، ولد ونشأ في بلاط والده بغزنة، وقد ولّاه والده على لاهور وما فتحه محمود في الهند سنة 426هـ، فأحسن السيرة في ولايته، توفي في لاهور في عهد أخيه السلطان مودود بن مسعود، بعد أن أظهر الخلاف على أخيه؛ الحسني، نزهة الخواطر ج1، ص69.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص19.

(5) لهاور: أو لهور بضم أوله، وسكون ثانيه، والهاء، وآخره راء، مدينة عظيمة مشهورة من بلاد الهند؛ القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: 739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ، ج3، ص1212.

نجا من مقتلة مسعود واختبأ فترة، ثم ما لبث أن خرج وأعلن نفسه سلطاناً في بعض النواحي، وجمع حوله جيشاً من الأتراك والعرب والفرس⁽¹⁾، وقد أيدته بعض الأسر الغزنوية التي كانت ترى في عبد الرشيد الكبير السن والأكثر خبرة أفضل من ابن أخيه الشاب، واندلعت بينهما حرب أهلية استمرت أشهراً، وقد استعان كل منهما ببعض القبائل والولاة المخلصين، وتذكر المصادر أن عبد الرشيد استولى على مدينة كابل وما حولها، وقطع الخطبة باسم مودود في بعض المساجد، فقد طلب من الخليفة القائم بأمر الله (ت: 467هـ/1075م)⁽²⁾، أن يلقيه بسيف الله، فلقبه الأخير بجمال الدولة وكمال الملة وجلال الأمة شمس دين الله ومجد عباد الله، فهذا التحدي كان أخطر من تحدٍ عسكري عادي، لأنه يمسّ بشرعية الحكم ذاتها، ويقسم البيت الغزنوي إلى شطرين متقاتلين، وتضطرب روايات الزحف السلجوقي بين مصادر متأخرة كابن الأثير وابن خلدون، ومصادر معاصرة كالبيهقي؛ إذ تغلب على الأولى نزعة تعظيم السلاجقة، بينما تكشف قراءة أدق أنهم كانوا قبائل متنافرة استغلت فراغ خراسان، وبناءً على ذلك لم يكن انسحاب مودود من الأقاليم الغربية جيناً، بل تقديراً لموازين القوى إذ أدرك أن جيشاً منهاكاً بالفتن لا يقوى على مواجهة زحف متعدد الجبهات، فاختر تركيز قوته في قلب الدولة على أن يخسرها كلها، ويؤكد هذا الترجيح استمرار الدولة الغزنوية بعده قرابة قرن، وهو ما لا يتأتى لو كان انسحابه انهياراً.

وكان مودود في موقف صعب، إذ إن قتاله لعمه قد يصوره في أعين الناس كمعتدٍ على حرمة القرابة، وتركه قد يضيع ملكه، لكن مودوداً اختار الحسم، فالتقى بجيش عمه في معركة طاحنة عند سفح جبال غزنة، وقد انتهت بانتصار مودود وأسر عمه عبد الرشيد، وهنا اختلفت الروايات، فبعضها يقول إنه عفا عنه وسجنه، وبعضها يقول إنه قتله، ولكن الراجح أنه قتله أو أودع السجن حتى وفاته⁽³⁾، وتكشف روايات النزاع بين مودود وعمه عبد الرشيد عن تناقض بين المصادر؛

(1) ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت: 723هـ/1323م)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط1، 1416هـ، ج4، ص349.

(2) القائم بأمر الله: عبد الله بن أحمد القادر بالله بن المقتدر العباسي، أحد الخلفاء العباسيين في العراق، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 422هـ/1031م، بعهد منه، وكان ورعاً، عادلاً، وفي أيامه كانت فتنة البساسيري؛ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت: 463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج11، ص47.

(3) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ، ج26، ص76-78.

فبعضها يصوّر عبد الرشيد ملكاً مبيعاً في بغداد، وبعضها يجعله ثائراً خارجاً على ابن أخيه، وآخر يذكر أنه قُتل في السجن بعد أن أُمن، وهذا التضارب يستدعي نقداً يوازن بين الروايات في ضوء مصالح روايتها، والأرجح أن عبد الرشيد كان يمثل شرعية خلافة بغداد التي سعى مودود إلى انتزاعها، فكان الصراع صراع شرعيتين لا مجرد خلاف أسري، ويؤكد هذا أن مودوداً لم يقتل عمه انتقاماً، بل لأنه أدرك أن بقاءه مرهون بإزالة كل منافس للسلطة، حتى لو كان من أهل بيته، وهو ما يفسر عزله اللاحقة واعتماده على مواليين لا قرابة، وهذا القرار وإن كان قد حقق لمودود السيطرة على الملك وحيداً، إلا أنه زاد من عزلة الأسرة الحاكمة حوله، إذ أصبح لا يثق بأحد من أقاربه، وهم بدورهم أصبحوا لا يثقون به، مما جعله يعتمد على غرباء من القادة والوزراء، وهؤلاء لم يكونوا في الغالب أوفياء بالدرجة الكافية، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم كوكلاء لا كشركاء، ومن ثم فإن هذا التحدي الأسري أوقعه في فخ الانفراد بالملك دون أن يحيط نفسه ببطانة قوية من أهل بيته، أما خارجياً، فكان الخطر السلجوقي هو الأكبر والأعظم، إذ كان السلاجقة قد بسطوا نفوذهم على معظم خراسان بعد هزيمة مسعود في معركة دندانقان سنة 431هـ/1040م⁽¹⁾، واستولوا على مدن كبرى كمر وبلخ ونيسابور.

وبعد وفاة مسعود واندلاع الفتن الداخلية، وجد السلاجقة الفرصة سانحة للتوسع، فزحفوا نحو مدن الجبال كالري وأصفهان وهمدان، وهددوا قلب الدولة الغزنوية في غزنة وبخارى، بل إن طغرلبيك السلجوقي (ت: 455هـ/1063م)⁽²⁾ كان يعدّ العدة لغزو غزنة ذاتها، مما أثار هلع أهلها، وحاول مودود مواجهة هذا الخطر باستراتيجيتين: عسكرية تمثلت في إعادة تنظيم جيشه وتوجيه حملة نحو مرو، لكنها فشلت فشلاً ذريعاً بسبب تكتيكات السلاجقة السريعة، مما زاد من إحباط قادته، ودبلوماسية

(1) معركة دندانقان: جرت بالقرب من مدينة مرو، بين السلاجقة بقيادة طغرل بك وأخيه جغري بك، والغزنويين بقيادة السلطان مسعود بن محمود، انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للغزنويين، مما أدى إلى فقدانهم لملك خراسان وبلاد ما وراء النهر، ومهد لقيام الدولة السلجوقية كقوة كبرى في المشرق الإسلامي؛ الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993م، ج30، ص381.

(2) طغرلبيك: محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أول ملوك الدولة السلجوقية، تولى الملك سنة 429هـ/1038م، وتميز بالحلم، وهو الذي ردّ ملك بني العباس بعد أن اضمحلت دعوتهم في العراق، وأعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد، وقتل البساسيري، وأزال دولة بني بويه، وتزوج من ابنة الخليفة السبكي، عبد الوهاب بن تقي (ت: 771هـ/1370م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ، ج5، ص248.

تمثلت في مراسلة الخليفة العباسي القائم بأمر الله في بغداد ومحاولة استمالته ضد السلاجقة، لكن تلك المراسلات لم تحقق نتائج ملموسة، لأن الخليفة كان مشغولاً بصراعاته الداخلية مع البويهيين، ولم يكن يملك جيوشاً ليرسلها لنجدة الغزنويين، وبسبب وهن الجيش الغزنوي وضعف الدبلوماسية، اضطر مودود إلى الانسحاب من معظم الأقاليم الغربية والتركيز على حماية غزنة والهند⁽¹⁾.

واجه مودود مشكلة بنيوية في جيشه التركي، الذي كان قوامه جنوداً مرتزقة تربطهم بالسلطان مصلحة مادية لا ولاء دينياً أو قومياً، إذ أن ذلك الجيش كان يتألف من محاربين جدد ينتظمون بين أونة وأخرى، وتبعاً لسير المعارك وطلباً للارتزاق والمغانم، مما يؤكد أن الرابطة بين الجند والسلطان كانت قائمة على العطاء المادي لا على الولاء الثابت، فقد ورث مودود جيشاً منقسماً على نفسه، تتناحر فيه فصائل القادة الذين أظهرُوا ولاءً ثم استقلالية، مما أثار ريبة السلطان، فحاول معالجة هذا الخل بسياسة التوزيع المتوازن للنفوذ، فكان يولي ويعزل ويحرّض القادة بعضهم على بعض، لكنه بالغ في تلك السياسة حتى زادت التوجس وعدم الاستقرار، وهو ما يعكس وعيه بخطورة الوضع. غير أن المشكلة كانت بنيوية؛ إذ تضاعفت الغنائم وتأخرت العطايا في عصره، فانحل عقد الجيش الذي يقوم على المصلحة المادية، وأضاع مودود وقته وجهده في إرضاء القادة وإخضاعهم، مما استنزف طاقته وأضعف الدولة في مواجهة أعدائها الخارجيين، دون أن يتمكن من إعادة اللحمة المفقودة لجيشه⁽²⁾.

وبالتالي يمكن القول أن حكم استمر مودود سبع سنوات اتسمت بعدم الاستقرار، إذ عانى من تحدٍ عميق ناتج عن مقتل والده مسعود على يد جنده، مما جعله يتخذ قرارات متسارعة، فزادت عزلة السلطان وترىص الأعداء به، ورغم ذكائه السياسي وحزمه العسكري، لم يستطع تكوين بطانة ثابتة أو جيشاً مخلصاً، إذ ظل يخوض معارك في حلبة مغلقة، وكل جبهة يفتحها تغلق أخرى، مما جعل سنوات حكمه أقرب لسلسلة من الأزمات المتلاحقة، والحقيقة أن التحديات المتشابكة كانت تفوق طاقته، فالإرث الثقيل بالتناقضات، والموارد المحدودة، والجيش المتردد بين الطاعة والتمرد، شكلت

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت: 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت، ج2، ص169-170.

(2) محمد، سوادى عبد؛ عليوي، ميسون خلف، الجيش الغزنوي طبيعته وتنظيماته، مجلة آداب البصرة، العدد56، 2011م، ص155-180.

مزيجاً استنترف جهده لكنه مع ذلك استطاع تأخير السقوط سبع سنوات، وهو إنجاز يحسب له في ظل تلك الظروف العصيبة.

المبحث الثالث: وسائل التثبيت الشرعي وتدبير الملك في ظل الانحسار

اعتمد مودود بن مسعود في تثبيت حكمه على مزيج من الوسائل الشرعية والسياسية، فاستمد شرعيته من نسبه الغزنوي وتوكيده على كونه حفيد الغازي محمود، واستمال العلماء والفقهاء ليكونوا سنداً له، فظهر كسياسي ماهر أكثر منه قائداً عسكرياً، لكن القيود التي حالت دون استكمال هذه السياسات، والتناقضات الناتجة عن تطبيقها في زمن الانحسار، حالت دون أن يتمكن من تحقيق استقرار دائم لملكه، فأولى وسائل التثبيت الشرعي التي اعتمدها مودود، وأكثرها ظهوراً هي توكيده على نسبه فهو ابن السلطان مسعود وحفيد السلطان محمود الغزنوي الذي قضى على دولة بني سامان⁽¹⁾، فقد ربط مودود شرعيته بإرث جده محمود، مستثمراً هيبة المؤسس في مجتمع يقدر الأنساب، لكن هذا الربط حملته أعباء توقعات كبيرة، إذ كان الناس يقارنونه بمحمود، وعندما فشل في مواجهة السلاجقة وتراجع عن بعض الفتوحات، تحول النسب من مصدر شرعية إلى أداة نقد، فاتهم بالضعف والخيانة، وقد أدرك مودود هذا المأزق، فحاول تخفيف حدته بخلق مشروعية جديدة مستقلة عن النسب، وهي استمالة العلماء والفقهاء والقضاة، وإضفاء صبغة دينية على سلطانه، فقد كان العلماء في ذلك العصر يمثلون ضمير المجتمع، وهم الذين يشرعون الطاعة، وكان لهم تأثير كبير في الرعية، خاصة في المدن الكبرى كغزنة وبخارى وبلخ⁽²⁾.

وبذل مودود جهداً في التقرب من العلماء، فخصص لهم الأوقاف، واستشارهم في أموره، وأفتوه بقتل عمه عبد الرشيد بوصفه باغياً، مما وفر غطاءً شرعياً لأفعاله وجعل مخالفه خارجين عن الدين، لكن هذا التحالف كان مكلفاً، إذ طالب العلماء بالعدل ورفضوا بعض إجراءاته كجمع الضرائب

(1) مقدم، سهام، مطبوعة بيداغوجية في مقياس المشرق الإسلامي ما بين القرنين 8-15 الميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة، الجزائر، 2025م، ص23.

(2) بطاينة، محمد ضيف الله، الحركة العلمية في عصر الدولة الغزنوية (351-582هـ/962-1186م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2006م، ص55-68.

بقسوة، مما وضعه في مأزق بين حاجته المالية وإرضائهم، وهكذا كانت العلاقة مع العلماء تبادلية غير مستقرة، مما قيد حركته في أوقات الأزمات وكشف حدود هذه الوسيلة الشرعية⁽¹⁾.

كما اعتمد مودود على وسيلة الألقاب والخطب والمظاهر السلطانية، وهي وسيلة قد تبدو شكلية، ولكنها في الواقع كانت جوهرية في ذلك العصر، حيث كان السلطان يقاس بهاء بلاطه، وكثرة حجابيه، وفخامة ألقابه، وطول خطبه، وقد ورث مودود عن أسلافه نظاماً دقيقاً للألقاب، كلقب "يمين الدولة" و"عضد الملة" و"سلطان الغزاة والمجاهدين"⁽²⁾.

حرص مودود على إضافة ألقاب كـ"ناصر الحق" و"منقذ الدين" و"شهاب الدولة"، وأمر بتداولها في الخطبة والرسائل، كما ضرب السكة باسمه في السنة الثالثة من حكمه لتأكيد نفوذه. غير أن هذه المظاهر ظلت هشّة لعدم استنادها إلى قوة مادية، وعانى من فجوة صارخة بين ألقابه العظيمة وضعفه الفعلي، خصوصاً مع تسرب أخبار هزائمه، وقد بالغ في المظاهر في أوقات الضعف لتعويض عجزه المادي بهيبة معنوية، لكنه كان يدرك أن ذلك لا يكفي، فظل يبحث عن وسائل أكثر فعالية لتدبير ملكه. ورغم محاولاته، ظلت هذه المظاهر قاصرة عن سد الفجوة بين الشكل والمضمون، مما هدد هيئته وزاد من هشاشة حكمه⁽³⁾.

والى جانب الوسائل الدينية والشكلية، اعتمد مودود على سياسة إدارية محكمة في تدبير الملك، تقوم على التوزيع الذكي للمناصب والإقطاعات، والموازنة بين ولاية الأمصار وقادة الأجناد، وقد كانت هذه السياسة من تراث الدولة الغزنوية، لكن مودوداً أضاف إليها بعداً جديداً، وهو التركيز على كبار الموظفين المدنيين من الفرس والكتاب، لأنهم كانوا أقل تمرداً من القادة الأتراك، وكانوا يحتاجون إلى السلطان لحماية مكانتهم، فقام بتولية عبد الرزاق بن أحمد الميمندي في العديد من المناصب الإدارية كما بمهارته القتالية فأرسله مودود إلى سجستان لاسترجاعها من السلاجقة⁽⁴⁾، أثارت سياسة مودود في تقريب الفرس على حساب الأتراك حفيظة القادة، بينما احتاج مودود لفرس الإدارة وأتراك

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(2) الحراني، هلال بن المحسن (ت: 448هـ/1056م)، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986م، ص 186-187.

(3) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص 71-86.

(4) محمد، بدر عبد الرحمن، رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1987م، ص 91.

الحرب، فحاول موازنة صعوبة بين الجانبين بالهبات والإقطاعات، غير أن هذا التوازن لم يستقر وكشفت هذه الإشكالية عن عيب بنيوي في الدولة تمثل في الازدواجية بين المدنيين والعسكريين، وكل منهما يطمح في السيطرة، وفي زمن الضعف ضعف الحكم واشتدت الخصومات مما أدى إلى شلل القرار، وظل مودود رغم دهائه يقدم تنازلات متضاربة، مما زاد من هشاشة الدولة في مواجهة التحديات، واستمر هذا الصراع الإداري دون حل حاسم، مما أضعف الدولة وعجل بانهارها، وفي الختام، يمكن القول إن وسائل التثبيت التي اعتمدها مودود كانت محدودة الأثر إذ لم تدم طويلاً، لكنه مع ذلك أبدى حنكة سياسية مكنته من إبقاء اسمه على المنابر والحفاظ على غزنة وبخارى، مانعاً الانهيار الكامل للدولة في زمن الفتن، وكان أبرز إنجازاته أنه نقل الدولة من مرحلة التوسع إلى مرحلة البقاء، فأعاد تعريف هوية الملك من الغزو إلى الدفاع، ومن كثرة الفتوح إلى ثبات العاصمة، وهو تحول فعلي في الممارسات وإن لم يكن واعياً في الخطاب، وقد مهد هذا التحول الطريق لخلفائه لتقبل واقع الحال والعمل في حدود الإمكان إذ لم يستطع السلاطين الغزنويين من بعده إعادة مجد دولتهم واستقلالها. وهكذا نجح مودود في تثبيت حكمه عبر موازنة دقيقة بين ما يملك وما لا يملك⁽¹⁾.

الخاتمة:

في ختام البحث حول غزنة في عصر الفتنة: سياسة السلطان مودود بن مسعود بين إرث الأب وتحديات البقاء، فقد تم التوصل إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها:

- أوضحت الدراسة أن مودوداً ورث عن أبيه مسعود دولة منهكة الجسد، لا دولة قوية كما يصورها بعض المؤرخين، فقد كان الإرث الذي تسلمه مليئاً بالتناقضات بين هبة الاسم ووهن البنين، إذ إن مسعوداً ترك لابنه جيشاً متمرداً، وخزانة شبه خاوية، وعدواً سلجوقياً على الأبواب، فلم يكن مودود وريث ملك مستقر، بل كان وريث أزمة مركبة.

- كشفت الدراسة عن أن البنية الاقتصادية الغزنوية القائمة على الغنائم والخراج كانت هشة بطبيعتها، فلما انقطعت الغزوات الكبرى وفقدت الأقاليم الغربية المنتجة للخراج، انهارت موارد الدولة، وكانت تلك إشارة على انتهاء عصر الوفرة وبداية عصر العسر، وهو ما فكك ولاءات الجند الذين كانت تربطهم بالسلطان مصالحهم المادية فحسب.

(1) الغويل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، ص73.

- بيّنت الدراسة أن النزاع الأسري مع عمه عبد الرشيد كان من أخطر التحديات التي واجهها مودود، لأنه قسم البيت الغزنوي إلى شطرين متقاتلين، وأضعف موقف الدولة أمام أعدائها الخارجيين، ورغم انتصار مودود في تلك المواجهة، إلا أنها زادت من عزلته، إذ أصبح لا يثق بأقاربه، وهم بدورهم أصبحوا لا يثقون به، مما جعله يعتمد على غرباء من الوزراء والقادة لم يكونوا أوفياء بالدرجة الكافية.

- توصلت الدراسة إلى أن مواجهة مودود للخطر السلجوقي كانت غير متكافئة، إذ إن جيشه كان منهكاً بالحروب الأهلية، والسلاجقة كانوا أسرع حركة وأكثر انضباطاً، مما جعل حملاته العسكرية في خراسان تفشل فشلاً ذريعاً، ودبلوماسيته مع الخليفة العباسي لم تحقق نتائج ملموسة، فكان الانسحاب من الأقاليم الغربية قراراً حتمياً فرضته طبيعة المرحلة، وإن أثار حفيظة الكثير من الأمراء الذين اتهموه بالجن.

- أظهرت الدراسة أن وسائل التثبيت الشرعي التي اعتمدها مودود، كالاستناد إلى نسب جده محمود الغزنوي واستمالة العلماء والألقاب السلطانية، كانت وسائل ناجحة جزئياً في منحه شرعية مؤقتة، لكنها ظلت هشة لأنها لم تستند إلى قوة مادية، وقد تحولت تلك الوسائل نفسها إلى أداة نقد ضده عندما قصر عن بلوغ ما بلغه جده، مما عكس تناقضاً بين المظهر والجوهر.

- كشفت الدراسة عن أثر الصراع بين العنصر الفارسي والعنصر التركي في بلاط مودود، حيث كان وزيره الفارسي يميل إلى سياسة التقشف والانكماش، بينما كان القادة الأتراك يميلون إلى الغزو والغنائم، وتأرجح مودود بين الفريقين أضعف حسمه وشل حركته، وجعله يتخذ قرارات غير مرضية للطرفين، مما يبين كيف أن الانقسامات داخل البطانة الحاكمة كانت عاملاً إضافياً في إعاقة تدبير الملك.

- خلصت الدراسة إلى أن مودوداً استطاع رغم قصر مدة حكمه أن يحول الدولة الغزنوية من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى مملكة إقليمية مركزها غزنة وبخارى، وهو تحول جوهري في هوية الدولة، لم يكن انهزاماً بقدر ما كان وعياً بحقيقة المرحلة، وقد مهد هذا التحول الطريق لخلفائه لتقبل واقع الحال، مما أحر سقوط الدولة قرابة القرن، وهذا يعد أبرز إنجازاته السياسية رغم كل ما لحق سياسته من نقد وتجريح.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م.
2. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت: 1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م.
3. ابن العمراني، محمد بن علي (ت: 580هـ/1184م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تح: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1 2001م.
4. ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (ت: 723هـ/1323م)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط1، 1416هـ.
5. ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت: 749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996م.
6. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م.
7. ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت: 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ط1، 1900م.
8. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
9. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت: 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت.
10. الأصفهاني، عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2022م.
11. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ.
12. بطاينة، محمد ضيف الله، الحركة العلمية في عصر الدولة الغزنوية (351-582هـ/962-1186م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2006م.

13. البيهقي، ظهير الدين علي بن زيد (ت: 565هـ/1169م)، تاريخ بيهق، دار اقرأ، دمشق، ط1، 1425هـ.
14. البيهقي، محمد بن الحسين (ت: 470هـ/1077م)، تاريخ البيهقي، تر: يحيى الخشاب، صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1999م.
15. التيناوي، مها محمد علي، ما ملكت أيمانكم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م.
16. الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت: ٨١٦هـ/1413م)، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.
17. جوده، محمد صلاح، الدولة الغزنوية في المشرق الإسلامي، دار اسكرايب للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2025م.
18. الحرائي، هلال بن المحسن (ت: 448هـ/1056م)، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986م.
19. الحسني، عبد الحي بن فخر الدين (ت: 1341هـ/1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
20. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ط2، ١٩٩٥م.
21. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت: 463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
22. خليفة، حسن، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، المطبعة الحديثة، القاهرة، ط1، 1931م.
23. درويش، عبد الستار مطلق، السلطان محمود الغزنوي سيرته ودوره السياسي والعسكري في خراسان وشبه القارة الهندية 361-421هـ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009م.
24. الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/894م)، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1960م.
25. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، ١٩٨٥م.
26. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، العبر في خبر من غير، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1431هـ.

27. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/1348م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993م.
28. السبكي، عبد الوهاب بن نقي (ت: 771هـ/1370م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ.
29. الشيلابي، أسامة سعد علي، الحياة الاقتصادية في الدولة الغزنوية (351هـ-582هـ/962م-1186م)، المجلة الليبية العالمية، العدد64، 2022م.
30. العمري، أحمد بن يحيى (ت: 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ.
31. الغويل، حنان العجيل، نظم الحكم والإدارة في الدولة الغزنوية، مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت، العدد15، العدد1، 2023م.
32. القزويني، زكريا بن محمد (ت: 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ط1، 1960م.
33. القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: 739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجبل، بيروت، ط1، 1412هـ.
34. مجهول (ت: 372هـ/983م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م.
35. محمد، بدر عبد الرحمن، رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1987م.
36. محمد، سوادى عبد؛ عليوي، ميسون خلف، الجيش الغزنوي طبيعته وتنظيماته، مجلة آداب البصرة، العدد56، 2011م.
37. محمد، نورا عنتر، سلطة الشوانكاريين السياسية نشأة الإمارة وتطورها وسقوطها، مجلة الدراسات الدراسات العربية، المجلد51، العدد5، 2025م، ص3085-3104.
38. مقدم، سهام، مطبوعة بيداغوجية في مقياس المشرق الإسلامي ما بين القرنين 8-15 الميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البليدة، الجزائر، 2025م.
39. المنجم، إسحاق بن الحسين (ت: قبل 4هـ/625م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ.

40. النيجيري، عبدالله أبوبكر أحمد، مفهوم الخراج في الفقه الإسلامي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، العدد 23، 2021م.

